عنوان المحاضرة الثالثة: الرواية العربية والتراث السردي القديم

الأستاذة: خالص زهرة

اكتسب فن الرواية منذ نضوجه عبر القرن والنصف قرن في عالمنا العربي، وظائف فنية ومعرفية أثبتت قدراتها على الخوض في أخطر القضايا الفكرية، والاجتماعية، والسياسية...بعد أن كبرت صوت الجماعة وعبرت عن أزمة الإنسان المعاصر.

إن ما يميز التراث هو تجدد حضوره، وحركته الدائمة، وانتقاله المستمر من الماضي نحو الحاضر ثم المستقبل. فالتراث من هذه الناحية هو كائن حي متحرك بصيرورة دائمة هي صيرورة الحياة الواقعية التي ينبثق منها ويحيا فيها ومعها، وهي بدورها تحيا فيه ومعه. ولكن بشكل آخر ربما كان شكلها الأرقى الرافض لها، وربما كان تعبيرا عن صراعها مع نفسها. وبذلك يكون التراث جزءا من الحياة، فهو يحضر بكيفية دائمة في كل التمظهرات السلوكية، وكل العلاقات البشرية لأنه ببساطة مشكل الهوية الفردية، فلا يمكن الاستغناء عنه عند الحديث عن الفرد أو الجماعة. ومن هنا يكتسي التراث أهميته البالغة ويصبح عند المبدع هدفا للاستزادة منه وأداة للتعبير في الوقت نفسه.

وبالحديث عن التراث العربي القديم وسؤال العودة إليه لقراءته عند مفكرينا أو توظيفه للتعبير به وعنه أدبيا عند مبدعينا، يمكن القول بأن ترسيخ معالم الهوية التي حاول الاستعمار طمسها كان من أهم الأسباب التي دعت للعودة إليه. فالعودة إلى هذا التراث في حياتنا المعاصرة هي جزء من عملية الدفاع عن الذات، وهي عملية مشروعة وتشترك فيها جميع شعوب الأرض. وتبقى بعد ذلك كيفية التعامل مع التراث في العودة إليه، وحدود توظيفه، وبعد هذا السبب يأتي سبب آخر محوره بناء الذات لأن الارتفاع

إلى مستوى الحياة المعاصرة، في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافة، من جملة ما يتطلب إعادة بناء الذات نفسها، وإعادة بناء الذات من إعادة بناء التراث.

لقد سعت الدراسات النقدية بوعي جديد، وآليات مستحدثة، إلى تحرير المعرفة التراثية، بإعادة النظر في نصوصها المختلفة، وتفكيك معطياتها الجاهزة القابلة دوما لمستجدات القراءة.

وبتأمل مجموع النصوص الروائية، نجد أنها لم تتعامل مع التراث باعتباره منجزا مكتملا، بل اعتبرته وساطة مفتوحة النهاية، غير تامة وغير مكتملة تتكون من شبكة من المنظورات المنقسمة بين توقع المستقبل، وتلقي الماضي، وتجربة الحاضر الحية. من هنا انطلقت المنجزات الروائية العربية في تشرب النص القديم، ومن موقفها الواعي، أدركت هذه النصوص الروائية معنى العودة إلى التراث للنبش فيه، واستنباط المناسب منه، لتوظيفه وقراءة الراهن من خلاله، وعرفت في الوقت نفسه جماليات هذه العودة والانفتاح على الزمن التاريخي للارتكاز عليه حاضرا والانطلاق منه نحو المستقبل.

إن الرجوع إلى المنجز التراثي، هو فعل مرتد إلى الوراء يهدف إلى الكشف عن المسكوت عنه في النص العربي القديم الذي لم ينظر إليه السابقون لأنه لم يستجب لمتطلبات زمنهم وسياقات كتاباتهم، وبذلك أخذت الروايات العربية دورا جديدا محوره الكشف عن هوامش التراث، وتوظيفها لأهمية ما تقدمه للنص اللاحق في موضوع من الموضوعات وبذلك لا تتجاوز المادة التراثية كونها مادة ثقافية يمكن تحويلها، وهو ما ينتج أدوارا ريادية للنص الروائي تتجاوز مجرد التوظيف.

ارتبطت الرواية في بدايات النهضة الأدبية العربية بإحياء القديم، وبعث التراث. فقد كان للمقامات تأثير واضح فيها، المترجمة والمؤلفة من الناحيتين الشكلية والأسلوبية فخضعت لغة الرواية للسجع، وكثرة المترادفات، والمفردات الصعبة، وكان لألف ليلة وليلة تأثير واضح في المضمون، فبرزت في النص الروائي معا لم بطل الحكايات، وخضعت الأحداث للمصادفات والعجائبي والخارق. ومن ذلك ما نجده في رواية

"حدثنا عيسى بن هشام" للمويلحي، "ليلي سطيح" لحافظ إبراهيم، تخليص الإبريز في تلخيص باريز" للطهطاوي.

إن انطلاقة مثل هذه تؤكد مركزية التراث لدى المبدعين العرب في المرحلة التي تبلورت فيها الأجناس الأدبية وانتهت إلى الأشكال التي نعرفها اليوم ،حيث انتقل المبدع من السعي إلى المكوث في الماضي تمجيدا له إلى مرحلة الاشتغال عليه بالهدم والبناء ليناسب ذاته الجديدة، وذلك وفقا لاستراتيجيات جديدة تستدعي التراث الأدبي والتاريخي والشعبي والأسطوري.....والعالمي، لخلق طرائق تعبيرية جديدة تقدم إلى جانب المادة المثقلة بأسئلة الكينونة والمطابقة والمغايرة والإيديولوجيا والتاريخ والمستقبل، صورا جمالية يمكن الكشف عنها من خلال دراسة النصوص الروائية العربية تحت مسمى "التفاعل النصي".

يقوم التفاعل النصي على استحضار نصوص سابقة في النص اللاحق، والتفاعل معها وإنتاجها في بناء جديد. والرواية بوصفها كيانا لغويا فإنه يحمل في كثير من الأحيان شبكة من التفاعلات النصية، يستمدها الروائي من مخزونه الثقافي، فيستدعي الكثير من النصوص ليوظفها في إنتاجه النصي عندما تنسجم مع المضامين، ليدعم بها الرؤى التي يريد التعبير عنها. وقد تغدو هذه النصوص بما تشكله من تقاطعات نصية ظاهرة توجه قراءة النص وتهيمن عند الاقتضاء على تأويله أثناء القراءة نفسها. إن التفاعل النصي أكسب الرواية العربية تعددا لغويا أثرى التجربة العربية حيث أكسبها تعددية من سياقات أخرى مع بقائه ممركزا في سياقه الخاص.

وبالعودة إلى النصوص الروائية العربية يتبين أنها استعملت في بناء لغتها كل أنماط المستنسخات المرجعية والمقتبسات النصية التي تفاعلت مع النص الأصلي وأثرته، والتي نذكر من بينها القرآن الكريم، النصوص الدينية(الإنجيل/التوراة)، النصوص الأدبية، الأقوال المأثورة، القصص، السرود القديمة، الأساطير، النصوص التاريخية...وقد عمد الروائيون إلى استزراعها في إنتاجاتهم الروائية مما أفضى إلى تولد دلالات عميقة ومتعددة كشفت عن الرؤيا التي يصدر عنها النص الروائي المتأخر.

المراجع:

-حسين مروة، دراسات في ضوء المنهج الواقعي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان.

-محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

-ديفيد وورد، الزمان والوجود والسرد (فلسفة بول ريكور)، ط، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1999م.

-علي حرب، أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، مقاربات نقدية وسجالية، ط1، لبنان، 1994م.

-محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، إتحاد الكتاب العرب، 2002م.

-عبد الرحيم حمدان، اللغة في الرواية تجليات الروح للكاتب" محمد نصار"، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، المجلد 16، ع2، 2008م.

-حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، 2007م.